مذهب السوفسطائية

للأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى

(صورة الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى)

« ليس من يجهل مصر الشيخ طنطاوى جوهرى
هو ذلك الكاتب النحرير ، والمحرر الشهير . ذلك
الانسان ذو العقل الكبير . بل أحد رؤساء الحركة
السياسية الاجتماعية التى انتشرت فى كافة طبقات الشعب
الاسلامي تحت اسم الجامعة الوطنية »

سانتيلانا

هذا ما يقوله الأستاذ سنتيلانا المستشرق الايطالى الشهير . فى كتابه صدي صوت المصريين فى أوروبا . والذى نشر منذ عشرين سنة تقريبا

وقد تفضل علينا الأستاذ الشيخ طنطاوى بهذا البحث ـ مذهب السوفسطائية ـ الذى ننشره لفضيلته شاكرين ؟

المحرر

أعجبتنى وأيم الله مجلة (المعرفة) وسرنى كثيرا مانشرفيها من موضوعات قيمة تفيد الأمة والوطن والأسلام ولذا العلم بجميع فروعه . مما يدل على المقدرة العلمية لولدنا الفاضل الأستاذ عبد العزيز أفندى الأسلامبولى . و يشهد له بطول الباع فى الكتابة . وحسن الاختيار وغزارة العلم و بعد الهمة مما لايوجد إلا فى القليلين

فرأيت لكل ماتقدم أن أساهم فى هذا العمل الجليل ، وأساعد بقدر الطاقة ، بالكتابة فى هذه الصحيفة القيمة ، وهاأنذا أبدأ ببحث فلسفى عن مذهب السوفسطائية ليرى أبناؤنا كيف كان عليه القدماء

قال اليعقوبى فى تاريخه (ص ١٦٦ ج ١) وتفسير هذا الاسم (السوفسطائية) باليونانية « المغالطة » ، وبالعربية « التناقضية » يقولون لاعلم ولامعلوم . . . الخ) وقدتعقبه الأستاذ (سنتيلانه) وخطأه فقال(السوفسطائية باليونانية معلمو الحكمة ، أوطالبو الحكمة)

وصوب كلام الشريف المرتضى فى الأتحاف (مجلد ٩ ص ٤١٨) إذقال: (السوفسطائية) طائفة من حكماء اليونان ينكرون حقائق الأشياء ، ويزعمون أنه ليس ههنا ماهيات مختلفة ، وحقائق متميزة . فضلا عن اتصافها بالوجود . بل كلها أوهام لاأصل لها ، وسوفسطائية كلمة يونانية معناها طالب الحكمة ،إنتهى كلام الشريف الذى نقله الأستاذ سنتيلانه . ثم قال الأستاذ المذكور :

والحاصل أن السوفسطائية قوم اتخذوا الفلسفة حرفة . كانوا يجتازون المدن والأقطار يدعون القدرة على كل علم ، وعلى تعليمه أيضا فى أقرب وقت مع أنهم أجمعوا أنه لاعلم فى الحقيقة ، ولاحكمة ، وأن قصارى مايدركه الأنسان من الوجود -على فرض وجوده- هو مايدركه بحواسه الخمس ، ولما كان الأدراك الحسى مما يختلف بين الناس من إنسان لآخر . بل وفى الأنسان الواحد باختلاف الأوقات والصحة والمرض ، ومع ذلك يتغير تغيرا مستمرا ، لزم من ذلك أنه لاحق ولا باطل ، ولاخير ولاشر . بل كل ذلك مما تواطأ الناس عليه ليستقيم به

معاشهم ، ويكفى بعضهم شر بعض ، وهو فى نفسه أمر ليس بموجود طباعا — ثم قال : و بعد إجماعهم على هذه الأصول اختلفوا .

(١) فذهب (بروتاغورس) إلى أنه ما ظهر لكل واحد حقاً فهو حق بالنسبة إليه — فقال إن الأنسان مقياس الأمور فى وجودها ، وفى عدم وجودها أى ما رآه كل واحد موجودا فهو عنده موجود ، ومارآه معدوما فهو بالقياس إليه معدوم ، ولا يتعدى الحكم إلى غيره

(٢) وذهبت طائفة أخرى من أتباع (غورغياس) إلى أنه لما كانت الأشياء فى حكم التغيير الدائم كان الأنسان غير متمكن من إدراك الحق بوجه — وغاية مايقدر عليه أن يقتصر على ما يدركه فى كل آن من ظواهر الأشياء ، لا يتعدى حكمه فيها إلى ما يدركه فى آن آخر ، ولا يقول بوجود شىء البتة إذ حقيقة الأشياء على فرض وجودها معا لا طاقة للبشر عليها قال : والمذهب الأول عند العرب يسمى مذهب (العندية) والمذهب الثانى (العنادية) قال : وقد ألحقوا بهما مذهبا آخر ولكنه ليس من السوفسطائية فى شىء ، وهو مذهب (بيرون) كان معاصرا للأسكندر الرومى . ذهب إلى الشك المطلق ، وهو الأمساك عن الجزم بشىء أحق هو أم باطل ؟ قال ويسميه العرب بمذهب (اللاأدرية) قال : و إليهم أشار نصير الدين الطوسى فى حاشيته على المحصل (ص ٢٣) وذكر مايقرب مما تقدم فلا نطيل فيه . فههنا خرج أهل البحث من انحصار أفكارهم فى الماء أو الهواء ، أو أجزاء المادة

وبعبارة أخرى أن هذه الطبقة ، وهم السوفسطائية أشبه بالجنين خرج من بطن أمه . فأذا كان من قبلهم قد حبسوا فى العناصر من ماء وهواء ، ونار وتراب . أو فى أجزاء تلك العناصر خرج هؤلاء من ذلك السجن المادى ، وقالوا نحن لا نتقيد بقيد ما . ثم قال هذه هى فلسفة اليونان فى أواخر دهرها الأول ، وهو منتصف القرن الرابع قبل المسيح ، من التردد والارتباك بين مذاهب الطبيعيين ، ومشاغبات السوفسطائية وأخذ يدحض هذا المذهب ، ومما قال (وقد قيل إن

الشك يهدم نفسه) وذكر حكاية (ديوجانس الكلبي) أنه حضر مجلس بعض السوفسطائية فسمعه ينكر الحركة ويكثر البراهين على عدم وجودها . فلم يجبه (ديوجانس) بحرف ، وأخذ يتمشى فى المجلس ، ويضرب بعصاه الأرض إشعارا منه بأن مثل هـــذا القول المنكر للظاهر لايحتاج فى نقضه إلى بيان

ثم نقل عن المتكلمين المسلمين فى كتبهم (أن هؤلاء الشاكين لا ينبغى مناظرتهم . بل إحراقهم بالنار حتى يحسوها فيعرفوا ماكانوا ينكرون) فيمكن التكلم معهم ، قاله الأمام الرازى فى المحصل ، والشيخ التفتازانى فى شرح العقيدة النسفية . إنتهى كلام الأستاذ سنتيلانه

ثم إنى هنا لا بد لى أن أنقل لقراء « المعرفة » الصحيحة المعارف ، كلام الأستاذ سنتيلانه بنصه وفصه . لأنه فيلسوف أوروبى ، ليكون ذلك زجرا لهؤلاء المتعلمين فى الشرق الذين يرجع بعضهم من أوروبا ، وهم إما دهريون وإما طبيعيون ، وإما سوفسطائية ، وهم يجهلون ماعند أساتذتهم من العلم فيرجعون وهم غافلون قال مانصه بالحرف الواحد :

(أما القول بالطبيعة وألا شيء غيرها فهو لا يرضى العاقل المتبصر) كأنه يقول نعم لا أنازع فى كون الطبيعة والحركة من أصل الموجودات ، وإنما توقفت فى كيفية صدور الفعل منها . فلولم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد فمن أين حصل لهذا العالم النظام العجيب ، والترتيب الغريب الذى حارت فيه العقول ، وقصرت عن إدراكه الفحول ؟ كيف ينسب ذلك إلى الاتفاق والمصادفة ، ومجرد البحث — ليت شعرى كيف بقيت على تآلفها ، وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة ، وقد شهدت المعاينة بأن حركات أجزاء لا نهاية لها ولا محرك . لاتفضى إلا إلى غاية الالتباس ، وعدم القياس ، هذا لعمرى كمثل من وضع حروف المعجم فى ظرف أو صندوق ، ثم جعل يحركها يوما بعد يوم طمعا منه أنها تتألف من تلقاء نفسها ، فيتركب منها قصيدة بليغة . أو رسالة عميقة

فى المنطق أو كتاب فى الهندسة دقيق ، أليس هذا من السفه المبين ؟ فأنه لو دام على تحريكها السنين والدهور ما حصل من كده إلا على حروف . فكيف يتصور حدوث هذا الموجود بما هو عليه من الأتقان ، والأحكام ، وتطابق الأجزاء وعجيب مناسبة بعضها إلى بعض ، من حركات اتفاقية فى خلاء لا نهاية له ؟

قال أرسطوطاليس فى كتاب (سمع الكيان) (إن كل نظام يدل على وجود العقل ، وفضلا عن هذا إن ما حصل اتفاقا لا يحصل إلا مرة واحدة ، ولا يتكرر ، ولا يسوغ بناء حكم عقلى عليه ، ولا يقبل القياس بخلاف ما شهدت به التجربة فى عالمنا إلى الثبوت ، ولولا هذا ما أمكن إنشاء علم من العلوم الرياضية والطبيعية - هذا و إذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ، ولا شىء سواها . فمن أين هذه القوى العقلية التى يحدها كل واحد من نفسه وهى مع مافيها من العجز والقصور من أظهر الشواهد على وجود مايخالف مجرد المادة فى هذا العالم ، ولا سبيل من المادة إلى الأفعال العقلية لما بينهما من المغايرة الأصلية . فوجود مثل هذه القوى يستدعى وجود جوهر عقلى يجانسها ويماثلها و يكون مركزا لها)

ثم قال :

« وهل من المحتمل أن مانشعر به من تصور المعقولات ، والكشف عن الكيان وتفريق القضايا وتركيب القياسات ، لم يكن فى نفس الأمر إلا من اصطكاك المادة بجزء آخر ؟ وهل يسوغ فى العقل أن ما تضمنته عقولنا من الابحاث الدقيقة ، والمآخذ العميقة ، كالمنطق والرياضيات ، والألهيات ، وما فتنت به القلوب من الشعر الرائق ، والمطرب من الألحان ، وسحر البيان أصله من تلك الأجزاء .

هنالك سلم اليونانيون من هذه الحيرة فلا العناصر كالماء والهواء أصل الوجود ، ولا الجزء الذى لا يتجزأ ، ولا مذهب الشك ، أو العنديه ، أو العناية تغنى فتيلا عن معرفة الحقائق »